

# « يوتفع » يروي بقلمه، كيف بدأت صداقته مع فرويد وكيف انتهت الى خصومته

ترجمة: نهاد خياطة

ترجع قراءتي لكتاب فرويد في « تفسير الأحلام » الى عام ١٩٠٠ ، و كنت يومئذ في الخامسة والعشرين . لم افهم الكتاب فطرحته جانباً ، اذ كانت تعوزني الخبرة ، التي لم تأتني الا بعد حين ، لكي اتفهم نظريات فرويد . ولما عدت اليه في عام ١٩٠٣ تبين لي مبلغ صلته بأفكاري . كان الذي يهمني - بصفة رئيسية - تطبيق مفهوم آلية الكبت على الاحلام ، وهي الآلية المستفادة من سينكولوجية العُصَاب . فقد كان هذا الأمرذا أهمية بالغة عندي ، اذ كنت كثيراً مالاقي مكبوتات في اختبارات التداعي التي كنت اجريها على المرضى : أليه على المريض كلمات تحريضية معينة ، فكان إما لا يجيب بشيء لأنه لم يكن عنده ما يرتبط بهذه الكلمة او تلك ، وإما يجيء رجعه بطيناً على خلاف الأصل . وقد تبين لي ، فيما بعد ، ان هذا الاضطراب يحصل كلما مسّت الكلمة المحرضة موضعياً من نفس المريض فيه آفة او نزاع ، ويكون المريض - في اغلب الأحيان -

بدأت مغامرة تطوري الفكرى عندما صرت طبيب امراض عقلية . ورحت بكل سذاجة اراقب المرضى سريرياً من الخارج ، فوقيعت على سياقات ذات طبيعة Processes فوضعت هذه تستوجب التوقف عندها . فوضعت هذه السياقات تحت الملاحظة وشرعت في تصنيفها بدون ان أفهم عن محتوياتها شيئاً ، وكنا نعتبر هذه المحتويات قد تم تقويمها تماماً عندما نصفها بـ « محتويات مرضية » Patho Logical contents . لكن ، مع مرور الزمن ، اخذ اهتمامي يزداد بالحالات التي كنت اختبر فيها شيئاً افهمه ، كالبارانويا ، والكتابة الحادة ، والاضطرابات ذات المنشأ النفسي . وكنت - مذبدأت اعمل في الطب العقلي - استمد من دراسات بروير وفرويد ، فضلاً عن عمل بيير جانيه ، ثروة من الاتهامات والمحضرات . لكنني وجدت في « تقانية » فرويد في تحليل الاحلام وتفسيرها ماليقني ضوءاً كافياً على المظاهر التي يتخذها « الفحص » .

بأن يلحق بي ضرراً بالغاً ، فقد كان «اصحاب الشأن» اذا ذكروه ، ذكروه - على الأغلب - تلميحاً ، وكان اذا جرى بحث بشأنه ، ففي المرات لافي القاعات . لذلك ما كان اتفاق اختياراتي في التداعي مع نظريته ليجلب السرور الى نفسي .

وفي مرة كنت في مختبرى افكر في هذه الشؤون ، وسوس لي الشيطان بأن لدى من المبررات ما يبيح لي نشر النتائج التي توصلت اليها من اختباراتي بدون الاتيان على ذكر فرويد ، لاسيما واني كنت قمت باختياراتي قبل ان اتفهم كتابه بزمن طويل . ولكنني مالبثت حتى سمعت صوتاً آخر من شخصيتي الثانية : «لوفعلت شيئاً من هذا القبيل ، كما لو كنت غير عارف بفرويد ، اذن لكنت مخادعاً . وانك لن تستطيع ان تبني حياتك على كذبة .» بهذه النتيجة ، انحسم الأمر . ومنذئذ أصبحت مناصراً لفرويد في العلن ورحت ادافع عنه بلا هوادة .

اول مرة تناولت فيها الحجارة انافع عنه كانت في مؤتمر انعقد في مدينة ميونيخ حين الفى باحث محاضرة في «العصاب المتمكن» «تعتمد فيها اغفال ذكر فرويد . كتبت ، بهذه المناسبة ، في احدى المجالس الطبية - وكان ذلك في عام ١٩٠٦ - مقالاً عن نظرية فرويد في العصاب اسهم في فهم «العصاب المتمكن» الى حد بعيد ، فكتب الي اثنان من الأساتذة الالمان ، تعقيباً على هذا المقال ، يحدزان من الوقوف في صف فرويد والدفاع عنه ، لكيلا اعرض حياتي

غير شاعر بذلك . ولما كنت اسئلته عن سبب اضطرابه كان يجيب اجاية مصطنعة في الغالب . اظهرتني قراءتي لكتاب فرويد في تفسير الاحلام على أن آلية الكبت تفعل فعلها هنا ايضاً ( اي في اختبارات التداعي ) ، وعلى ان الواقع التي رايتها تتفق مع نظريته ، مما جعلني اتحقق من صحة الحجج التي أوردها في كتابه . لكن الوضع كان مختلفاً عندما نأتي الى المحتوى المكبوت . هنا لم استطع ان اتفق مع فرويد . فهو يعتبر الكبت يرتد الى ارتضاض جنسي *Saxual Trauma* ؛ اما انا فقد علمتني الخبرة ان ثمة حالات كثيرة من العصاب لايلعب فيها الجنس سوى دور ثانوي ، بل كانت فيه عوامل اخرى تحتل مركز الصدارة كمشكلة التكيف الاجتماعي ، والواقع تحت وطأة ظروف الحياة القاسية ، واعتبارات التفود ، وغير ذلك . ولما عرضت مثل هذه الحالات على فرويد بعد ان تعارفنا ، وجدته لا يسلم الا بعامل الجنس سبباً لها . وما كان هذا ليحملني على التسلیم بوجهة نظره .

في البداية ، لم يكن يسيرأ عليَّ ان أنزل فرويد عن المكانة الرفيعة التي احلته فيها من نفسي ، او ان اتخذ منه الموقف الصحيح . ولا اصبحت عارفاً بكتابه ، كنت اسعى للدخول في الحياة الأكاديمية ، وكانت أوشك على الانتهاء من دراسة كنت اعتزم تقديمها الى الجامعة . لكن فرويد كان يومئذ شخصاً غير مرغوب فيه في الأوساط الأكاديمية ، وكان اتصالـي به حقيقةً

الأولى عنه مشوبة بشيء من غموض لم استطع فهمه .

مقاله عن نظريته في الجنس كان كبير الأثر في نفسي . لكن كلماته ظلت مع ذلك لاتزيل عني ترددًا ولا تبدل مي شكًا . حاولت مرات عديدة ان ادلي بما عندي من تحفظات فكان يردها في كل مرة الى نقص في خبرتي . كان فرويد على حق لأن خبرتي يومئذ لم تكن كافية لتعزيز ما اعتبره به عليه . كان الذي استطعت ان اتبينه انه كان ينزل الجنس منزلة كبيرة من نفسه على الصعيدين الشخصي والفلسفي . وكان لهذا اثر في نفسي كبير ، غير أنني لم استطع ان اعين مدى صلة هذا الاخراج الشديد على الجنس بسابقه حكمه الشخصية ، ومدى اعتقاده في هذا الاخراج على اختبارات ثبتت صحتها .

فوق كل شيء ، كان موقف فرويد من الروح امراً قابلاً للتساؤل الى درجة كبيرة . كلما حكما جاء ذكر الروح ( بالمعنى العقلي لا بالمعنى الذي يعلو على الطبيعي ) في كل ماله علاقة بشخص او بعمل فني ، كان يشير شبهة فيه ويعرض بأنه جنس مكبوب ، وكان يرجع كل مالا يمكن تفسيره بالجنس مباشرة الى « الجنس النفسي » Psychosexuality .

فاعترضت قائلاً ان هذه الفرضية لو حملناها الى نتيجتها المنطقية لأفضت بنا ان نحكم على الثقافة بالاعدام . اجاب : « نعم ، وإنها كذلك ، وتلك هي لعنة القدر

الأكاديمية للخطر . قلت : « ان كان ما يقوله فرويد حقاً فانا معه ، ولا أغير أدنى اهتمام حياة اكاديمية تقوم على خنق البحث وانفاسه الحقيقة . ومضيت ادافع عن فرويد وأفكاره غير عابيه بالنتائج . وظللت مع ذلك اشعر - على اساس ما كنت اكتشفته بنفسي - انه لا يمكن رد جميع حالات العصاب الى الكبت الجنسي او الارتضاض الجنسي . في حالات معينة ، كان الأمر على ما ذكره فرويد ، وفي حالات اخرى لم يكن كذلك . ومع ذلك فتح لي فرويد طريقاً جديداً للبحث ، ووجدت صيحات الاستنكار التي انهالت عليه من كل صوب - وجدتها من سقط الماء .

عندما نشرت كتابي في سيكولوجية الفضام<sup>(١)</sup> ، لم اصادف عطفاً كبيراً على الأفكار التي اورتها فيه ، بل راح نفر من زملائي يهزون بي ويتندرون علي . لكن معرفتي بفرويد قد جاءت عن طريق هذا الكتاب . دعاني الى زيارته ، وكان لنا اول لقاء في مدينة فيينا ، وكان ذلك في شهر شباط من عام ١٩٠٧ . التقينا في الساعة الواحدة من بعد الظهر وطللنا نتحدث بدون توقف مدة ثلاثة عشرة ساعة . كان فرويد أول رجل ذي أهمية حقيقة اقبله ، وكان - في حدود خبرتي حتى يومئذ - انساناً منقطع النظر . لم يكن فيه ادنى شيء من تفاهة ؛ لقد وجدت فيه انساناً ذكياً الى اقصى حد ، داهية الى اقصى حد ، انساناً متميزاً بكل ما في الكلمة من معنى . لكن مع ذلك ظلت اطباعاتي

سألته في شيء من الدهشة : « حصننا .. ضد ماذا؟ » اجاب : « ضد مد الوحل الأسود » ، وهنا تردد لحظة ثم اضاف : « .. من الأشياء الخفية » Oeeultism . قبل كل شيء ، اجفلت من كلمتي « حصن » و « دغما طيقا » لأن هذه الأخيرة تعني اعلان إيمان لامراء فيه ؛ وإنما تُعتمد الدغما طيقا لقطع دابر الشك نهائيا . والدغما طيقا لاعلاقة لها بحكم علمي ، بل بحضور سيطرة شخصي .

لقد كان هذا الشيء هو الذي اصاب صداقتنا في الصميم . اذ كنت اعلم انه لن يكون بوعي ان اقبل بمثل هذا الموقف . وما بدا لي هو ان فرويد كان يعني بـ « الأشياء الخفية » كل ماتعلمته الفلسفه والدين عن النفس ، بما في ذلك العلم المعاصر الناشيء ، الباراسيكولوجيا . وكنت ارى نظرية الجنس كالفلسفه والدين خفاء . اي فرضية لم يقم عليها دليل ، مثلها كمثل غيرها من فرضيات النظر العقلي . وكنت ارى ان الحقيقة العلمية قد تكون مكافحة في الوقت الحاضر ، لكن لا يصح ان نأخذ بها كما نأخذ بركن إيمان يصلح في كل زمان .

كنت لاحظت في فرويد عوامل دينية متفجرة ، رغم اني - يومئذ - لم افهم ذلك فهماً صحيحاً . وكان من الواضح انه كان يستعينيني على اقامته حاجز يصدّ عنه هذه المحتويات الخافية التي كانت تهدده .

وقد زاد من حيرتي مخالفته هذه المحادثة

التي لانستطيع لها ردأ . « لم اكن مستعداً للموافقة ، او لأن ادع الأمور تسير على هذا النحو ، ولكنني شعرت يومئذ اني كنت مؤهلاً لأن اناقش الأمر معه .

في ذلك اللقاء بدا لي شيء آخر على جانب كبير من الأهمية ؛ كان يتعلق بأشياء ما كنت لأستطيع توضيحها او تفهمها الا بعد انقضاء صداقتنا . كانت ثمة حقيقة لا يخطئها احد ؛ كان فرويد متورطاً عاطفياً في نظريته الجنسيه الى درجة تتجاوز المعتاد . كان اذا تحدث عنها ؛ تهدر صوته ، واضطربت لهجته ، وبدا عليه نوع من التلهف ، وتلاشى عنه كل ما يتسم به طبعه - في حالته السوية - من شك ونقد ، حتى ليبدو على وجهه تعبير غريب وانفعال عميق لم اكن يومئذ ب قادر على فهم اسبابه . كان لدى حَدْس شديد ان الجنس عنده نوع من « القُدْسي Numinosum » . وقد عزّز هذا الحدس عندي محادثة جرت بيننا بعد نحو ثلاث سنوات [ في ١٩١٠ ] ايضاً في فيينا .

مازالت اذكركم كان فرويد مشرقاً ومتلهاً حيوية عندما قال لي : « عزيزي يونغ ، عذرني بآلا تخللى عن نظرية الجنس أبداً . فهي اساسية اكثر من كل شيء . وأنت ترى اننا يجب ان نجعل منها دغما طيقا ، وحصننا لا يتزعزع » . قال هذا بعاطفة باللغة ، وبلهجة اب يقول لابنه : « عذرني بشيء واحد ، يا بني ، انك سوف تذهب الى الكنيسة كل يوم احد . »

تغير ، وتغيرت معه - طبعاً - وجهة النظر : لقد بات علينا الآن ان نبحث عن الاله المفقود لافي الأعلى ، بل في الأسفل . لكن ، في نهاية المطاف ، ما الفرق بين ان يسمى المؤثر النفسي الأقوى مرة باسم ، ومرة باسم آخر ؟ لو كانت النفس غير موجودة ، ولم يكن ثمة الاشياء الملموسة ، لقضى احدهما على الآخر واحتل مكانه . لكن ، في الواقع الخبرة السيكولوجية ، لا ينقص مثقال ذرة من التلهف والقلق والقسر ، وتظل المشكلة قائمة : كيف نتخلص من القلق والملقا ، من الشعور بالاثم والاكراء ، من قلة الوعي والخضوع للغرائز . اما وأن فرويد لم يستطع ذلك من الجانب المثالي المضيء ، فلماذا لا يتصدى للمشكلة من جانبها البيولوجي المظلم ؟

تصاعدت هذه الأفكار الى رأسى كما يتصاعد اللهب فجأة . ثم اتضح لي معناها فيما بعد عندما رحت اتأمل في شخصية فرويد . كان ثمة صفة ملازمة له استرعت اهتمامي اكثر من سواها : موارته ، ولقد استوقفني هذه المرأة منذ اول لقاء كان بيننا ، لكنها ظلت بلا تفسير الى ان استطعت رؤيتها في ضوء صلتها بموقفه من الجنس . كان الجنس عند فرويد بمثابة «القدسى» ، لكن ظلت اصطلاحاته ونظرياته - بالرغم من ذلك - تحده وظيفة بيولوجية حصرأ . وما كان لشيء ان يكشف لي عن العناصر التي كانت تعتمل في داخله كالانفعال الذي كان ينتابه كلما تحدث عن

من اثير في نفسي ، اذ ما كنت - حتى يومئذ - لأعتبر الجنس مفهوماً غالياً وعرضة للخطر ي يجب على المرء ان يظل مخلصاً له . لكنه كان يعني لفرويد اكثراً ما كان يعني لغيره من الناس . كان الجنس عنده شيئاً تجحب مراعاته دينياً . ويتصف صاحب مثل هذه الاعتقادات العميقية بالحذر والتحفظ يطفوan على سطحها ، بعامة . وبعد بعض محاولات متعددة من جانبي ، مالبثت المحادثة حتى انتهت .

كنت في حيرة وارتباك . وكان لدى شعور بأنني قبست لمحـة عن بلاد جديدة مجهمولة اخذت تتدفق منها حشود من افكار جديدة كانت تتوجه الى . كان شيء واحد واضحأ عندي : فرويد ، الذي كان دائمأ يبالغ في عدم تدینه والحاده ، يشيد الان دغماً طيفاً لنفسه ؛ او بالاحرى ، في مكان إله حسود اضعاه يُحل الان بدلامنه صورة اخرى اشد طغياناً ، هي صورة الجنس ، صورة لاتقل قسوة وخطراً وتناقضياً اخلاقياً عن الصورة الأصلية . وكما يعطي المؤثر النفسي الأقوى صفات «المية» او «شيطانية» ، كذلك اخذت «ليبيدو الجنس» عنده دور إله خبيء او خفي . ولعل الميزة التي اكتسبها فرويد من هذا التحويل انه اصبح الان قادرأ على النظر الى المبدأ الاهي واعتباره شيئاً غير قابل للنقد العلمي ، مبرأاً من كل لوثة دينية . غير أن الالوهة ، في العمق ، اعني الصفات النفسية للنقصيين غير المتساوين عقلانياً - يهوه والجنس - ، هذه الصفات بقيت هي هي . كل ما في الأمر ان الاسم وحده قد

لكنه كان خليقاً به عندئذٍ ان يردها الى « مجرد الجنس » او الى « الجنس النفسي ». لقد ظل ضحية الجانب الواحد الذي كان يستطيع الاعتراف به . وهذا السبب كنت اراه شخصاً واقعاً في مأساة ، لأنه كان انساناً عظيماً ، وما هو اكثر ، كان واقعاً في قبضة شيطان .

بعد المقابلة الثانية في فيينا ، قمت أيضاً بدراسة فرضية « ادلر ) المتعلقة بالسيطرة ، وكانت - حتى يومئذ - لا اعيرها من الانتباه الا اقله . ان مثل ادلر كمثل كثير من الابناء ، لم يتعلم من ابيه مقاله ، بل مافعله ، رأساً ، نزلت عليّ مشكلة الحب ( ايروس ) والسيطرة ثقيلة كالرصاص . كان اعلمني فرويد نفسه انه لم يقرأ نيتشه ابداً ؛ وانى لأرى الان ان سيكولوجية فرويد - ان صح التعبير - كانت حركة بارعة من جانب تاريخ الفكر ، ترمي الى التعويض عن تاليه نيتشه لمبدأ القوة ، وكان يجب اعادة صوغ المشكلة لا على اساس « فرويد في مقابلة ادلر » ، بل على اساس « فرويد في مقابلة نيتشه » . ولذلك كانت المشكلة ، فيما ارى ، اكثراً من قتال اهلي في ميدان علم الأمراض النفسية . وال فكرة التي لمعت بيالي ان « ايروس » ( = الحب ) و « حض السيطرة » ربما كانا ، بمعنى ما ، مثل ولدين متخاصمين لأب واحد ، او ناتجتين عن قوة حركة نفسية واحدة تبدلت واحدة تبدلت تجريبياً في شكلين متعارضين ، كالایجابي والسلبي في الكهرباء ، « ايروس » منفلاً وحضور السيطرة فاعلاً ،

الجنس . في الأساس ، كان يريد أن يعلم - او على الأقل هكذا بدا لي - ان الجنس ، منظوراً اليه من داخل ، يتضمن الروح وينطوي على معنى جوهري . لكن اصطلاحاته الحسية كانت اضيق من ان تعبر عن فكرته . لقد اعطاني انطباعاً انه كان يعمل ضد نفسه اعدى اعداء نفسه ؟ في كلماته هو ، كان يشعر انه مهدد بـ « مد الوحل الاسود » ذلك الانسان الذي حاول ان يدلي بدلائه في تلك الأعمق السوداء اكثر من كل انسان آخر .

لم يسأل فرويد نفسه ابداً لماذا كان مضطراً الى التحدث في الجنس باستمرار ، ولا لماذا كانت هذه الفكرة متمكنة منه ، فظل غير عارف بأن هذه « الرتابة في التفسير » تعبّر عن هرب من نفسه ، او من ذلك الجانب من نفسه الذي قد نسميه مستطيقياً ( = صوفياً ) . فمادام يرفض الاعتراف بذلك الجانب ، لسوف يظل عاجزاً دائمأ عن الاصطلاح مع نفسه . لقد فاته ان يرى التضارب والغموض في محتويات الخافية ( = اللاشعور ) ، ولم يعرف ان لكل شيء ينهض من اعماقهها أوجاً وحضيضاً ، ظاهراً وباطناً . عندما نتكلم عن الظاهر فقط - وهذا مافعله فرويد - فإننا لا نأخذ في اعتبارنا الا النصف من الكل ، مما ينجم عنه نشوء اثر مضاد من الخافية ( = اللاشعور ) .

لم يكن ثمة ما يمكن عمله حيال هذه الأحادية عند فرويد . ولعل خبرة داخلية كان يخترقها بنفسه كانت كفيلة بأن تفتح عينيه ،

لربما لم يتجاوز العالم في اسرا فاته العقلية .  
 عندما ترجم النفس في وضع تتأرج فيه  
 تأرجحاً عنيفاً بواسطة الخبرة الالهية ، ينشأ ثمة  
 خطر أن يؤدي بنا ذلك الى  
 انقطاع الخيط الذي تتعلق به . و اذا حدث  
 هذا ، وقع انسان في اثبات مطلق ، وقع آخر  
 في نفي مطلق ، ازاء هذه الحالة لاخرج لنا الا  
 بتناول العلاج الشرقي : نرد بندنا Nipdvandva  
 ( الخروج من التناقض ) . وهذا مالم أنسه .  
 نواس العقل لا يضطرب بين الخطأ والصواب ،  
 بل بين المعنى واللغو . والقدسي خطر لأنه  
 يغرينا بالذهب الى الحدود القصوى ، بحيث  
 تصبح حقيقة وضيعة هي « الحقيقة » وغلطة  
 تافهة خطأ قائلاً . « كل شيء فرائل » Tout  
 Passe . حقيقة الأمس تصبح باطل اليوم ،  
 واستنتاج خاطئ توصلنا اليه اليوم يصبح وحي  
 الغد . وتصدق هذه الحالة خصوصاً على الأمور  
 السيكولوجية التي - ان شئنا الحق - لم نزل  
 لانعلم عنها إلا قليلاً . نحن لم نزل بعيدين عن  
 فهم يعنيه أن الشيء لا وجود له إلا ان يدركه  
 شيء صغير من الواقعية ( وللأسف ، كم  
 هو زائل هذا الشيء الصغير ! )

لقد تبين لي من حديثي مع فرويد انه كان  
 يخاف ان ينطفئ ذلك الضوء القدسي الذي  
 كان يومض من فمه للجنس بفعل « مذ الوحل  
 الأسود » . وبذلك ينهض امامنا وضع  
 ميثولوجي : الصراع بين النور والظلم . وهذا  
 يفسّر لنا لماذا اتصف الصراع بالقدسية ، ولماذا

والعكس بالعكس . الايرروس يفرض على  
 حض السيطرة نفس المطالب التي يفرضه هذا  
 الاخير على الأول . هل يوجد احد الحضين  
 او السائقين بدون الآخر ؟ يخضع الانسان  
 للسائق من ناحية ، ويحاول الانسان اخضاعه  
 من ناحية ثانية . لقد اظهر فرويد كيف يخضع  
 الموضوع للسائق ، وأظهر ادلر كيف يسرخ  
 الانسان السائق لكي يفرض ارادته على  
 الموضوع .اما نيشه ، القاطن في قبضة قدره ،  
 فكان عليه ان يخلق « انساناً اعلى » لنفسه .  
 والتنتجة التي توصلت اليها هي ان فرويد لا بد  
 وأن قد خضع خضوعاً شديداً لسيطرة  
 « الايرروس » حتى لقد اراد ان يرفعه الى مستوى  
 الدغماء طبقاً ، كما ترفع الأديان آهتها .  
 ولا يخفى ان « زرادشت » كان داعية انجيل ،  
 وان فرويد كان يحاول ان يتحطى الكنيسة و يجعل  
 من نظريته قانوناً كنسياً . والحق انه لم يفعل ذلك  
 بصوت عال جداً ، بل - بدلاً من ذلك - خامره  
 ظن باني اريد ان اكون نبياً . تقدم بادعائه  
 المتساوي وتراجع عنه في نفس الوقت . وهذا  
 ما يفعله الناس عادةً امام « القدس » وما يفعلونه  
 صحيح ؛ لأنهم على حق من جهة ، وعلى غير  
 الحق من جهة اخرى . التجربة الالهية ترفع  
 وتحط في نفس الوقت . لو أن فرويد اعطى اهمية  
 اكبر نوعاً ما الى حقيقة الجنس السيكولوجية بها  
 هي شأن الهي - إله وشيطان في آن - لما ظل  
 محصوراً في نطاق المفهوم البيولوجي . ولو أن  
 نيشه ثبت ثابتاً بأسس الوجود الانساني ،

من انقضاء بضع سنين حتى يعترف بأهمية الباراسيكولوجيا ويقر بحقيقة الظاهرات « الخفية ». .

. وبينما كان فرويد ماضياً في نبذة هذه الظاهرات ، انتابني احساس غريب . لقد احسست كأن حجابي الحاجز قد من حديد . وحرّ من شدة الحرارة ، واصبح قنطرة متقدة . في تلك اللحظة صدرت عن خزانة الكتب - وكانت مما يلینا تماماً - طلقة عالية حتى انتاب كلينا هَلْعَ شدید ، وخفنا ان تقع الخزانة علينا . قلت لفرويد : « هوذا مثال على ظاهرة الاستظهار الكاتالتيكي Catalytic Exteriorization لكنه قال : « هذا هراء محض ! » قلت : « ليس كذلك ، انت مخطيء سيدى البروفيسور » ولكنني اثبت لك صحة رأيي ، استطيع ان اثبتا الآن ان طلقة عالية اخرى ستتصدر بعد لحظة ! « وبالفعل لم اكذب انتطق بهذه الكلمات حتى صدرت عن خزانة الكتب طلقة ثانية ، حتى هذا اليوم ، لم اذر ما الذي جعلني استيقن من ذلك . كذلك لم اذر ماذا كان يجول في ذهن فرويد وقتئي ، ولا ماذا كانت تعني نظرته الى . لكن هذه الحادثة استثارت ربيته في ، على كل حال . وبعد ذلك لم ابحث معه في هذه الحادثة ابداً<sup>(١)</sup> .

انكفا فرويد رأساً الى الخلف ، وانكبّ على « دغماً طبقته » يتخذ منها وسيلة دينية للدفاع . في كتابي « سيكولوجية الخافية » الذي تناولت فيه صراع البطل من اجل التحرر ، رأيت في رجع فرويد الغيب ماشجعني على التعمق في بحث هذا الموضوع البديهي وخليطه الميثولوجية . لقد حلني التفسير الجنسي من جهة ، وسائل السيطرة المتمثل بالدغما طيقاً من جهة ثانية ، على النظر - طوال عدة سنوات - في مشكلة النماذج Typology . وكان ضرورياً ان ادرس الاستقطاب والحركة في النفس . كذلك ابتدأت بحثاً امتد عقوداً في « مد الوحل الأسود من الأشياء الخفية » ، اي اني حاولت فهم الأسس التاريخية الشعورية وغير الشعورية التي تقوم عليها سيكولوجيتنا المعاصرة .

كان يهمني ان أعرف رأي فرويد في موضوع الاستشراف Precognition الباراسيكولوجيا عموماً . ولما زرته في فيينا عام ١٩٠٩ سأله رأيه في هذه الموضوعات ، فوجده - بسبب من انحيازه الى المادية - يرفض هذه المسائل جملة وتفصيلاً ويعتبرها لغواً لا معنى لها . وكان يفعل ذلك بطريقة تتبدى فيها الوضعيّة Positivism على اضلal ما يكون ، حتى لقد وجدت صعوبة كبيرة في ايقاف الرد الحاد الذي كان على رأس لساني . وكان لا بد

(١) في رسالة له الى بونين مؤرخة في ١٦ نيسان من عام ١٩٠٩ ، يعترف فرويد بهذه الحادثة ، لكنه ذهب في تعبيلها الى اتها ضرب من الايمان لوابجهة وفع افرويد نكت وطاته ، شأنه في هذا كثيرون الحادثة من اصلها ، ثم ينسبون الوهم الى من حدثت معه ، حتى اذا اضطروا الى الاعتراف بحقيقة حدوثها راحوا يلتسون لها اسباباً مادية .

الاهتمام من جانبي على اعصاب فرويد . ولقد سألني عدة مرات : « لماذا انت مهتم بهذه الجثث الى هذا الحد؟ ». وفي احدى هذه المناقشات ، بينما كنا نتناول طعام العشاء معاً ، اذا به يُغمى عليه فجأة . كان مغتاظاً الى اقصى حد من الموضوع كله . بعد ذلك قال لي انه مقتنع بأن معنى هذا الحديث كله ان عندي « رغبة تقوية Deathwish » ضده . كانت دهشتي عظيمة من هذا التفسير . وشعت بخوف شديد من شدة تخيلاته التي بلغت به مبلغاً يسبب له الاغماء .

وفي مناسبة اخرى مماثلة أغمي على فرويد في حضوري . حدث هذا في اثناء انعقاد مؤتمر التحليل النفسي في مدينة ميونيخ في عام ١٩١٢ . تطرق احدهم الى امينوفيس الرابع (= اختاتون) . وكانت النقطة التي دارحوها البحث ان اختاتون قام بإزالة الكتابات المنقوشة على نصب ابيه بسبب من سلبية موقفه منه ، وان وراء ابداعه العظيم ديانة توحيدية ابوية . اغضبني هذا النوع من التفسير فحاولت الرد بالقول ان امينوفيس كان مبدعاً اصيلاً ومتدينًا عميقاً ، لا يمكن تفسير اعماله من منطلق مقاومة شخصية لأبيه . قلت ، على العكس ، لقد جعل ذكرى ابيه في محل تكريم ، وانما اقتصرت حاسته التخريبية على اسم الإله « آمون » فأزاله

كان عام ١٩٠٩ عاماً حاسماً في علاقتنا فيه دُعيت لالقاء محاضرة في « اختبار التداعي » في جامعة كلارك بمدينة « ورسستر » (مساتشوستس بالولايات المتحدة) . وكان فرويد تلقى دعوة مماثلة بمعرض عنى ، فقررنا ان نسافر معاً . التقينا في بريمن حيث انضم اليانا « فرنتزي » . وفي بريمن وقع فرويد مغشياً عليه ، وكان معروفاً عنه انه يُغمى عليه كثيراً ، وكان اغماؤه مشارب حث كثير . وقد استثاره - بصورة غير مباشرة - اهتمامي بـ « جثث مستنقع الحث<sup>(٢)</sup> ». وكنت علمت ان هذه الجثث توجد في بعض مناطق الشمال من المانيا ؛ وهي تعود الى انسان ما قبل التاريخ ، غرق اصحابها في المستنقعات او دفعوا فيها . يحتوي ماء المستنقع حيث توجد الجثث على مادة كيمياوية هي حامض الدبّال<sup>(٣)</sup> ، يتلف العظم ويدبغ البشرة فتظل هي والشعر على حالتهما الأصلية . وهذا ، في الاساس ، سياق تحنيط طبيعي ، اذ تُكبس الجثث وتستوي من شدة وطأة الحث ، ويعثر على هذه البقايا مصادفة من ينقبون عن الدبّال في هولشتاين والدانمارك والسويد .

بعد ان قرأت عن هذه الجثث ، عدت فذكرتها عندما كنا في بريمن ، ولما كنت مضطرباً قليلاً خللت بينها وبين المومياء الموجودة في اقبية الرصاص في المدينة . وكان ضرب هذا

(٢) الحث (بضم الهمزة) peat نسق نباتي نصف متحم ي تكون من تحلل النبات جزئياً في الماء .

(٣) حامض الدبّال (بضم الدال وتشديد الهمزة) Humus Acid . والدبّال Humic Acid مادة سمراء أو سوداء تتشكل من تحلل المواد النباتية والحيوانية وتشكل الجزء المضوئ من التربة (رجعنا من أجل الحث والدبّال الى المورد القريب ) .

طبيعي . وفي المحل الثاني ، لم يكن بوسعي التضحية باستقلالي الفكرى . وفي المحل الثالث ، ماكنت لأرحب بممثل هذا البريق الذى لا يؤدى إلا إلى ابعادى عن اهدافى الحقيقة . لقد كنت معنباً بالبحث عن الحقيقة لا بالفوذ الشخصى .

دامت رحلتنا إلى الولايات المتحدة سبعة اسابيع ، وكانت بدأت في بريمن عام ١٩٠٩ . كأن كل يوم معاً ، وكان كل منا يحمل حلام الآخر . وفي غضون هذه الرحلة ، رأيت عدداً من الأحلام لم يستطع فرويد أن يحصل منها شيئاً . لكنني لم اعتبر ذلك مما يقلل من شأنه ، لأن خير المحللين قد يحدث له أحياناً أن يعجز عن فك لغز في حلم . إن هذا من طبيعة عجز الإنسان ، لكنه لم يكن ليمنعني من تحليل الأحلام . على العكس . لقد كان تحليلها يعني لي الشيء الكثير ، ووجدت أن علاقتنا ذات قيمة عظيمة . كنت اعتبر فرويد شخصاً أكبر مني سنًا ، وأكثر تجربة ، وانصاع خبرة ، وكانت أشعراني كالابن من هذه الناحية . ثم حدث شيء كان ضربة قاصمة للعلاقة كلها .

رأى فرويد حلماً - لا أظن ان من حقي ان اعرض بالمشكلة التي ينظرى عليها . فسرته خبر تفسير كان بمستطاعي ، وأصفت ان بإمكانى ان اقول عنه الشيء الكثير لو يمكّنى ببعض تفصيلات من حياته الخاصة . كان جواب فرويد على هذه الكلمات ان حذجني بنظرية غريبة ، نظرة تسم بالرivity الى حدتها

من كل مكان ، ومحاه من النقوش جميعاً ، وفي جلتها النقوش التي اشتملت على اسم ابيه « امون - حوت » . ثم ان الفراعنة غيره كانوا يستبدلون اسماءهم بأسماء آبائهم الحقيقة او الاهية التي تنشق على الصب والتماثيل شعراً منهم بأن لهم الحق في ذلك بما هم تحسيد لنفس الاله .. ومع ذلك لم يبتدعوا اسلوباً جديداً ولم يخترعوا ديانة جديدة .

في تلك اللحظة سقط فرويد مغشياً عليه . تجمّعنا كلنا حوله لأنبدي ولا نعيده . ثم حلته إلى الغرفة المجاورة ومدته على أريكة كانت هناك . واني لأحمله اذا استفاق قليلاً ، وطفق ينظر إلى نظرات لمن انساها ماحييت . كان ينظر إلى ، وهو في ضعفه ، كما لو كنت انا اباء . ومهما كانت الأسباب الأخرى التي كان لها نصيب في هذا الاغماء - كان الجوموتوراً فعلآ - فقد كان التوهم به « قتل الأب » واحداً في الحالين .

يومئذٍ كانت تصدر عن فرويد تلميحات متكررة مفادها انه يعتبرني خليفة له . وكانت هذه التلميحات تبعث في نفسي ضيقاً شديداً ، اذ كنت اعلم انني لا استطيع ابداً تأييد وجهات نظره عن النحو الذي كان يريد . ثم انني لم اكن قد توصلت بعد إلى احكام انتقاداتي وصوغها صياغة يكون لها وزن امام وجهات نظره . كذلك ما كانت لتجذبني فكرة ان اتوى زعامة حزب ، وما يترتب عليها من اعباء تفوق طاقتى . في المحل الأول ، لم يكن هذا الشيء في

يرجع تاريخه الى القرن الخامس عشر او السادس عشر ، وان المفروشات ترجع الى العصر الوسيط ، اما الأرض فكانت من قرميد احمر . كان كل شيء اقرب الى الذكنة . رحت انقل من حجرة الى اخرى قائلاً في نفسي : «الآن يجب علي ان انقب عن المنزل كله . » وجدتني امام باب ثقيل ففتحته . فرأيت مما يليه سلماً حجرياً نزل بي الى قبو . نزلت ونزلت حتى وجدتني في حجرة ذات قنطرة جليلة بدت قديمة للغاية . واني لأتفحص الجدران اذ اكتشفت طبقات من قرميد بين كتل الحجر العادي وكسارات قرميد في الملاط . سرعان ما عرفت ان الجدران تعود الى الازمنة الرومانية . عند هذه اللحظة كان اهتمامي قد بلغ ذروته .

ورحت ادنى ناظري من الأرض اتفحصها . كانت بلاطات حجرية وفي احداها الحلقة . عاجلت الحقيقة فاستجابت فرأيتها تكشف عن سلم حجري ضيق يفضي الى الأعمق . نزلت هذا السلم ايضاً فدخلت في كهف واطيء منحوت في الصخر . كانت تفرض ارضه طبقة غبار سميكه ، وكان في الغبار عظام منتاثرة وفخار متكسر ، اشبه بشيء بقايا ثقافة بدائية . رأيت ثمة ججمتين آدميتين بادياً عليهما القدم ، شبه مفككتين . ثم استيقظت . اكثر ما استرعى اهتمام فرويد في هذا الحلم الجمجمتان . لقد عاد اليهما مراراً والآن

الأقصى . ثم قال : « لكنني لا استطيع ان ا GAMER بسلطاني ! » في تلك اللحظة اضاعه كله ( = برید اضاع سلطانه كله ) . لقد ظلت هذه الجملة تعتمل في ذاكرتي طويلاً ، وكان فيها نذير بانها علاقتنا . اذن ، كان فرويد يحمل سلطانه الشخصي محلاً اعلى من الحقيقة .

قلت لم يكن فرويد قادرًا على تفسير الأحلام التي كنت اراها حينئذ الا تفسيراً ناقصاً ، اولم يكن قادرًا على تفسيرها بالمرة . كانت احلاماً تنطوي على محتويات تردد الى الخافية الجامعة ، وعلى شيء كثير من المادة الرمزية . وكان لأحد ها اهمية عظيمة على وجه الخصوص ، لأنـه قادني لأول مرة الى مفهوم « الخفية الجامعة » Collecetive Uneonscious ، وكان في هذا نوع من تمهيد لكتابي : « سيكلولوجية الخافية » (٤) .

هذا هو الحلم : وجدتني في منزل لأعرفه ، مؤلف من طابقين . كان « منزلي » .

ووجدتني في ردهة في الطابق العلوي تفرشها قطع من اثاث قديم ناعم من طراز « روکوكو » . على الجدران ، كان معلقاً عدداً من اللوحات القديمة الشمينة . عجبت ان يكون هذا متزلي فقلت في نفسي : « لا بأس » . لكن خطوري عندي أني لا أعرف شيئاً عن الطابق السفلي . نزلت للسلم بلغت الطابق الأرضي ، حيث كان كل شيء اقدم بكثير ، فاتضح لي ان هذا الجزء من المنزل

يكن فوق اللوم . لكن « الحرب خدعة !»<sup>(٥)</sup> فقد كان متذرعاً على فرويد ان ينفذ الى عالمي العقلي ، اذ كانت الفجوة التي تفصل بيننا اوسع من ان تردم . والحق كان فرويد عظيم الارتياح الى جوابي ، مما جعلني اذهب الى انه كان عاجزاً كل العجز عن تناول انواع معينة من الاحلام فراح يبحث عن ملاذ يلجأ اليه في عقيدته . وأدركت يومئذ ان الأمر يتوقف على لكي اعرف معنى الحلم الحقيقي .

لقد كان واضحاً عندي ان المنزل يمثل نوعاً من صورة النفس ، اي الحالة التي كانت عليها واعيتي يومئذ ، ومعها الاضافات التي احتلت الخافية حتى يومئذ . فالردة تمثل الواقعية ، وكان جوها يصلح للسكن برغم طرازها القديم .

اما الطابق الأرضي فيمثل المستوى الأول من الخفية . وكلما نزلت في العمق اصبح المشهد غريباً ومظلماً . في الكهف بقايا ثقافة قديمة ؛ اي عالم الانسان البدائي الذي في داخل نفسي ، عالم لا يكاد بالمستطاع بلوغه او اثارته بالواقعية . نفس الانسان البدائي تاخم روح الحيوان ، تماماً مثلما كانت كهوف ازمنة ما قبل التاريخ آهلة عادة بالحيوان قبل استيلاء الانسان عليها .

في هذه الحقبة ، ادركت مدى بعد الشقة التي تفصل بيني وبين فرويد في موقفي العقلي ،

على ان اجد «رغبة» تتصل بها . يريد ان يعرف ماذا تذكرت بشأنهما ، ولن هما . طبعاً كنت اعرفalam يرمي : ان في الحلم «رغبة قويت» سرية . قلت في نفسي : لكن ، ماذا يتوقع مني فعلاً ؟ تجاه من كان عندي «رغبة قويت» ؟ شعرت برفض شديد لكل من هذه التفسيرات . كذلك كان عندي فكرة غامضة عما قد يعنيه الحلم حقيقة . لكنني كنت آثئلاً غير واثق من صحة حكمي فأردت ان اسمع رأي فرويد . كنت اريد ان اتعلم منه . ولذلك استجابت لمقصده وقلت : «زوجتي وشقيقتها ؟ لقد كان علي ان اسمي شخصاً يستحق موته هذه الرغبة مني .

كنت يومئذ متزوجاً حديثاً ، وكنت اعرف تماماً ان ليس في داخلي ما يشير الى وجود مثل هذه الرغبة . كذلك لم اكن لاستطيع ان اعرض على فرويد افكارى الخاصة المتعلقة بتفسير هذا الحلم من دون ان القى منه قلة فهم وصداً شديدين . وكنت يومئذ غير مستعد لأن اخاضم معه ، وكنت اخشى ان أفقد صداقته لو اصررت على وجهة نظرى . ومن ناحية اخرى ، كنت اريد ان اعرف ماذا عساه ان يصنع بجوابي ، وماذا عسى ان يكون رجعه لوغضشه وقلت له شيئاً يتناسب مع نظرياته . وهكذا كذبت عليه !

وكنت اعلم حقاً ان هذا المسلك مبني لم

(٥) عبارة الأصل وردت بالفرنسية : a la guerre, comme a la guerre

بوضوح الأسس التي تقوم عليها الثقافة التاريخية ؛ اي تاريخ الطبقات او الأدوار التي تعاقدت على الواقعية . وبهذا يكون الحلم قد رسم نوعاً من « الخط البياني » للنفس البشرية ؛ لقد طرح الحلم مسلمة ذات طابع « غير شخصي » تقوم عليها النفس ، فجاءت الأجرؤة من تلقاء ذاتها ، واصبح الحلم عندي صورة مرشدة أريدها أن تصدق في المقابل من الأيام الى مدى لم استطع ان ارتتاب فيه بادئ الرأي . لقد كان الحلم اول لامعة عن بدريّة جامعة<sup>(٦)</sup> كانت تقبع تحت النفس الشخصية او الفردية . وقد اعتبرتها - منذ الوهلة الاولى - آثاراً من طرائق قديمة كانت تخذلها النفس في قيامها بوظائفها . لكن ، مع مرور الأيام ، وترانيم الخبرة ، ووصولى الى معرفة يركن اليها ، اتضحت لي انها اشكال من الغريرزة ، اي نماذج بدائيةArchetypes.

ما كنت لأنفق مع فرويد ابداً على ان الحلم « واجهة » Facade يختبئ وراءها معناه ؟ اي معنى سبق لنا ان عرفناه ثم حجبناه خبثاً عن واعيتنا ، ان جاز لنا التعبير . الأحلام عندي جزء من الطبيعة لانية عندها لأن تغشنا ؟ تعبير عن الشيء احسن تعبير ، تماماً كما يطلع الزرع ، ويسعى الحيوان احسن سعي بحثاً عن غذائه . وهذه صور من الحياة لاتنوي خداع ابصارنا ؛ وليس ما يخدع ابصارنا الا قصر نظر

كانت نشأتني في مدينة بازل » حيث كان الجرو التاريخي يخيم كثيفاً في نهاية القرن التاسع عشر ، وكانت اكتسبت شيئاً من معرفة تاريخ علم النفس من قراءتي لقدماء الفلسفه . ولما بدأت ادرس الأحلام ومحفوبيات الحافنة ، لم افعل ذلك ابداً بدون اجراء مقارنات تاريخية . وفي ا أيام الدراسة والطلب كنت دائم ارجع الى معجم « كروغ » الفلسفي ، وكانت اعرف كتاب القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر معرفة جيدة . وفي المقابل ، خيل الي ان تاريخ فرويد العقلي كانت بدايته عند « بوختر » و « موليشوت » و « دي بواريمون » و « دارون » .

لقد دلّني الحلم على ان ثمة مجالات اخرى من حالة الوعي التي ذكرتها تواً ينبغي الوصول اليها : الطابق الأرضي غير المأهول الذي يرجع طرازه الى العصر الوسيط ، ثم القبو الروماني ، وآخرأ كهف ماقبل التاريخ . وهذه كلها تعني الأزمنة الماضية والمراحل الاولى من الوعي .

طوال الأيام التي سبقت رؤيتي لهذا الحلم ، كانت تلحّ علي اسئلة من نوع معين مثل : ماهي الأسس التي أقام عليها فرويد سيكولوجيته ؟ ماهي فئة الفكر البشري التي تنتسب اليها ؟ ما علاقة حصريتها شبه النامة بالمسلسلات التاريخية العامة ؟ لقد اعطاني هذا الحلم الجواب عن كل هذه الاسئلة ، فيبين لي

(٦) البدريّة والبدريّة اصلاح عربان اعتمدهما ترجمة للكلمتين اللاتينيين : a posteriori و a priori . - المترجم -

عقلی ، من صنع الخيال ، وراح يعالج وبخل جمیع مافیه من قنطورات<sup>(۷)</sup> وحوریات وآلہ ما اشتمل عليه كتاب «کرویزر» کما لو كانت هذه لها مرضی قصدتني للاستشفاء . وما كان في مقدوري ، وأنا منشغل على هذا النحو ، الا ان ابحث عن الصلة الوثيقة بين المیثولوجیا القديمة وسیکولوجیة الأقوام البدائیة ؛ وهذا ماأدى بي الى القيام بدراسة مکثفة لهذه الاخیرة .

أحاول ان افهم ما معنی ان يكون العقل مجنوناً . كانت حیرتی حیرة من لوکان في مصح وسط هذه الدراسات ، وقعت على تخیلات لشابة امیرکیة لا اعرفها ابداً ، هي الانسة «میلر» ، وكان تولی نشر الموضوع صدیق لي احترامی لأبی ، هو «تیودور فلورنسوی فی «ارشیف البسیکولوچیا» (جنیف) . كان ما استرعی انتباھی في هذه التخیلات . ماتتصف به من طابع میثولوجی . لقد فعلت فعل «الخفار»<sup>(۸)</sup> في مخزون الأفکار التي لدی ، وكانت حتى يومئذ في وضع مضطرب في داخلي ؛ فكان منها ، وما حصلت من معرفة بالأساطیر ، کتابی في «سیکولوجیة الخافیة»<sup>(۹)</sup> .

وإني لأعمل بهذا الكتاب ، كنت أرى احلاماً كانت تنذر بما سوف تؤول اليه صداقتي

فيما ، اننا اذا نسمع خطأ ، فإننا نسمع كذلك لأن في آذاننا ما يشبه الصمم ، لا لأن آذاننا تريد أن تخدعنا . قبل مدة طويلة من مقابلتي|فروید| ، كنت اعتبار الخافیة - والأحلام منها تمثيلاتها المباشرة - سیاقات طبيعية لانستطيع ان ننسب اليها استباداً او تحکماً من أي نوع أو - قبل كل شيء - شعوذة . لم اعرف سبباً واحداً يسوغ لنا القول ان حیل الواقعية بسعتها الامتداد الى سیاقات الخافیة الطبيعية . على العكس ، لقد علمتني الخبرة اليومیة مقدار ماتبدي الخافیة من مقاومة شديدة في وجه میول عقلنا الواقعی .

كان حلم المنزل اثر كبير في احیاء اهتمامي القديم بعلم الآثار . لم اکد اعود الى زوریخ حتى تناولت كتاباً في اعمال التنقب عن آثار بابل ، ثم قرأت اعمالاً مختلفة في الاسطورة ، وإنی لفی هذه القراءات اذ وقعت على كتاب لـ «فریدریش، کرویزر» بعنوان :

«الرمز والاسطورة عند الأقوام القديمة»<sup>(۱۰)</sup> هذا الكتاب ألمبni حماسة ! انکببت کالمأخذ على قراءته ، ورحت اعمل في جبل من المادة المیثولوجیة وأنا في حمی اهتمامي ، ثم عکفت في قراءة الكتبات الغنوصیة ، وانتهیت الى حیرة مطبقة . لقد وجدتني في حالة حیرة اشبه ماتكون بحیرتی الأولى التي عانیت منها في العيادة وأنا

Friedrich Creuser, Symbolik und Mythologie der alten Völker . (۷)

(۸) التطور : حیوان خرافی نصفه الاعلى بشرونصفه الأسفل حصان (الورد القريب) .

(۹) الخفار catalyst (تعرب صاحب «الورد») وهو كل مادة تغير في سرعة التفاعل الكيميائي بدون ان تغير هي نفسها . (من معجم «کلتل» الانگلیزی) .

(۱۰) هونان بالالمانية Wandlungen und Symbole der lübecker, 1912

ولما رأيت هذا الحلم كان هذا الاسقاط لم يزل فاعلاً ولما يُستبعد نهائياً . وكلما كان إسقاط ، لم نكن موضوعين ؛ بل نظل في حالة من انقسام الحكم ؛ نتواكل من ناحية ، ونقاوم من ناحية أخرى . قلت عندما رأيت الحلم ، كنت لم ازل أعلى من شأن فرويد ؛ ولكنني كنت - في نفس الوقت - متقدلاً له . ولقد كان الانقسام في موقفي منه دليلاً على أنني ما زلت غير شاعر بالوضع ، ولم اصل بشأنه الى قرار . وهذه خصائص جميع الاسقطات . اذن ، ان الحلم يفرض عليّ ضرورة توضيح الموقف .

وكنت ، تحت تأثير شخصية فرويد ، طرحت جانباً - على قدر المستطاع - احكامي الخاصة وأخفيتها (= كبت) انتقاداتي ؛ كان هذا مما يتطلبه تعاوني معه . وكنت اقول في نفسي : « ان فرويد احكم منك واكثر خبرة . وما عليك - في الوقت الحاضر - الا ان تصغي اليه وتعلم منه . » ثم كانت المفاجأة اذ وجدتني احلم به موظفاً نكداً في امبراطورية النمسا ، وشبحاً لخفيه جمركي ميت . هل يمكن ان تكون هذه هي « رغبة التمويت » التي كان عرض بها فرويد وقال انني كنت اشعر بها تجاهه ؟ لم استطع ان اجد جزءاً في نفسي كان بإمكانه - وهو في حالي السوية - ان يشعر بمثل هذه الرغبة ، لأنني كنت اريد - مهما كلف الأمر - ان اكون قادراً على العمل مع فرويد ، وان يكون لي نصيب من ثراء خبرته : اقول هذا بطريقة انانية سافرة . لقد كانت صداقته تعني لي الشيء

مع فرويد من قطبيعة ، من اهم هذه الأحلام حلم اخذ مسرحاً له الاقليم الجبلي الواقع على الحدود السويسرية - النمساوية . كان الوقت اصيلاً ، ورأيت شيئاً طاغياً في السن يرتدي زي خضراء جمارك النمسا مرآماً ، محياناً قليلاً ، من دون ان يغيرني التفاصيل ، كانت ملائحة تتسم بالقسوة ، عليها مسحة كتابة ، وفيها امتعاض ، كان ثمة اشخاص آخرون ، انبأني احدهم ان الشيخ العجوز غير موجود فعلاً ، وماتراه ان هو الا شبح خفيه جمركي توفي لبعض سنوات خلت ، من الذين لا يزالون غير قادرين على الموت تماماً . « كان هذا الجزء الأول من الحلم » .

شرعت في تحليل الحلم : فيما يتصل بـ « الجمارك » جاءتني رأساً كلمة « رقابة » ومع الكلمة « حدود » خطرت لي فكرة الحدود القائمة بين الواقعية والخلفية من جهة ، وبين وجهات نظري ووجهات نظر فرويد من جهة ثانية . وبدا لي « التفتيش » البالغ الدقة الذي يجري على الحدود وكأنه تلميح الى « التحليل » . ففي نقطة الحدود تفتح الحقائب ، ويجري التفتيش على المواد المهرّبة . اما « خفيه الجمرك » العجوز ، فواضح ان عمله لم يكن ليجلب له القليل مما يسر حتى اتخاذ له هذه النظرة المقيدة عن العالم . لم يكن بوسعي ان اشبهه الا بفرويد . وكان فرويد فقد يومئذ الشيء الكثير من قيمته عندي . لكنه ظل مع ذلك في نظري شخصية رفيعة « أسقط » عليها لباس الآباء ؛

كنت اعرف ان الدكاكين مقلة والناس يمضون الى بيوتهم لتناول طعام الغداء . وكان وسط هذا الجموع من الناس فارس يمشي مدججاً بكامل سلاحه . اخذ يصعد سلم الدرج متوجهاً الي . كان يعتصر خوذة من النوع المسمى basinet ، ذات غطاء للعينين ، ويلبس درعاً من زرد ، وعلى الدرع ستة نسخ عليها ، من امام وخلف ، صليب احمر كبير . ولعل المرء يستطيع ان يتصور كيف كان شعوري : فجأة اشاهد في مدينة حديثة ، عند الظهيرة ، وفي ساعة تزدحم فيها الشوارع بالمارّة ، فارساً صليبياً يتقدم مني . والغريب في الأمر ان ما من أحد من المارة كان يبدو عليه ما يشير الى انه لاحظه أو التفت اليه او حدق فيه . فكانه لم يره احد غيري . تسائلت عن معنى ظهوره ؛ ثم خيل الي ان احداً اجابني (لكن لم يكن ثمة احد حتى يجيب) : نعم ، هذا ظهور منتظم . هذا الفارس يمرّدائماً من هنا بين الثانية عشرة والواحدة ، وهو ما يزال يفعل ذلك منذ زمن بعيد (منذ قرون على ماحسب ) ، وكل احد يعرف هذا . «

بين الفارس وخفي الجمرك مقابلة او مطابقة . هذا شخص ظلي او شبحي » لم يستطع ان يموت تماماً ؛ ظهور آخر في التلاشي . وذاك (اي الفارس) شخص مليء بالحياة ، حقيقي تماماً . كان الجزء الثاني من الحلم قدسيأ

الكثير ، ولم يكن عندي سبب يرغبني في موته . لكن من الممكن اعتبار الحلم تصحيحاً او تعويضاً او نقضاً لمعنى الواعي منه الذي ينطوي على اعلاء لشأنه واعجاب به . فجاءت توصية الحلم بوجوب اتخاذ موقف من فرويد ينطوي على نقد اكبر . كان الحلم صدمة نجلاء ، رغم مابدا لي في جملته الأخيرة من تلميح الى امكانية خلود فرويد<sup>(١)</sup> .

لم يبلغ الحلم نهايته عند خفير الجمرك ، اذ بعد فجوة فيه ، جاء جزء آخر منه اوضح وأهم . وجدتني في مدينة ايطالية ، وكان الوقت يقارب الظهيرة ، بين الثانية عشرة والواحدة . وكانت شمس حارقة تلفع الأرقة الضيقة لفحشاً شديداً . وكانت المدينة قائمة على تلال ذكرتني بطرف خاص من مدينة « بازل » هو « الكولنبرغ » . وكانت الأرقة الصغيرة المؤدية الى الوادي ، « البرسكتال » الذي يجري في قلب المدينة ، كانت متدرجة في بعض أجزائها . وفي الحلم ، كان احد هذه الأرقة المتدرجة يصل الى « بارفوسربلاتس » كانت المدينة مدينة « بازل » ولكنها كانت مع ذلك مدينة ايطالية اشبه ماتكون بمدينة « برغامو » كان الفصل صيفاً ، والشمس اللاهبة تسطع في كبد السماء ، وكان كل شيء يستحمل في ضياء شديد . جاءني جمع من الناس يجرون نحوه .

(١) ان كان لنا ان ندخل بين الكبار قلنا ان ما ذكره يوينغ في تعليله للحلم او محليله له بما ينفي عنه رغبة التمويت تجاه فرويد ليس مقنعاً تماماً . فرغبة التمويت - ان كانت موجودة فعلاً - ليس من الضروري ان يراد تحقيقها في زمن وقوع الحلم ، بل ربما تسحب على الم قبل من الأيام والسنين كذلك ان رغبة التمويت ليس من الضروري ان تغى الموت الجسدي ، بل ربما تعنى رغبة في موت من يراد موته معنوياً وهذا ما يؤكده تحليل يوينغ لحلمه .

تعلمـه فيـ الـ حـظـائـرـ تـعـلـمـه مـنـ ذـكـاءـ الـ فـطـرـةـ وـمـنـ تـخـيـلـاتـ «ـ الـ فـولـكـلـورـ »ـ الـ رـيفـيـةـ الـ تـيـ لـاـ يـقـيـدـهـ حـدـ .ـ الزـنـاـ (ـ بـالـ قـرـابـةـ الـ قـرـيـةـ )ـ Incestـ وـالـ شـذـوذـ مـلـمـ يـكـوـنـاـ اـمـرـأـ جـديـدـةـ عـلـيـ كـلـ الجـدـةـ ،ـ وـلـمـ يـكـوـنـاـ لـيـطـلـبـاـ تـفـسـيرـاـ خـاصـاـ ،ـ وـكـذـلـكـ الجـرـيمـةـ .ـ كـانـتـ هـذـهـ كـلـهـاـ تـشـكـلـ جـانـبـاـ مـنـ الرـاسـبـ الـ أـسـودـ الـ ذـيـ يـفـسـدـ طـعـمـ الـ حـيـاةـ اـذـ يـفـتـحـ عـيـنـيـ عـلـىـ قـبـحـ الـ وـجـودـ الـ بـشـرـيـ وـافـقارـهـ اـلـىـ الـ معـنـىـ .ـ اـنـ يـنـموـ الـ مـلـفـوـفـ فـيـ الـ دـمـ اـمـرـ كـنـتـ دـائـيـاـ اـخـذـهـ اـمـرـاـ مـسـلـمـاـ .ـ «ـ اـمـرـ وـمـاـفـيهـ اـنـ جـيـعـ اوـلـثـكـ النـاسـ هـمـ مـنـ اـهـلـ المـدـنـ ،ـ لـاـ يـعـرـفـونـ شـيـئـاـ عـنـ الـ طـبـيـعـةـ وـلـاـ عـنـ الـ خـطـيـةـ الـ بـشـرـيـةـ »ـ ؛ـ قـلـتـ هـذـاـ فـيـ نـفـسـيـ وـاـنـاـ مـشـمـئـزـ قـدـ اـرـهـقـيـ التـعـبـ مـنـ هـذـهـ الـ اـشـيـاءـ الـ قـبـحـةـ .ـ

الـذـينـ لـاـ يـعـرـفـونـ شـيـئـاـ عـنـ الـ طـبـيـعـةـ قـوـمـ مـعـصـيـوـنـ ،ـ لـأـنـهـ غـيرـ مـتـكـيـفـيـنـ مـعـ الـ حـيـاةـ ؛ـ مـسـرـفـوـنـ فـيـ السـذـاجـةـ كـالـأـطـفالـ ،ـ وـمـنـ الـ ضـرـوريـ اـنـ نـعـلـمـهـ حـقـائـقـ الـ حـيـاةـ ،ـ وـاـنـ نـوـضـحـ لـهـ اـنـهـ كـائـنـاتـ بـشـرـيـةـ مـثـلـهـمـ كـمـثـلـ غـيرـهـمـ مـنـ النـاسـ .ـ لـكـنـ هـذـاـ لـاـ يـعـنـيـ اـنـهـ يـشـفـوـنـ مـنـ غـصـابـهـمـ بـهـذـاـ التـنـوـيرـ ؛ـ كـلـ مـاـفـيـ الـ اـمـرـ اـنـهـ يـسـتـطـيـعـوـنـ اـسـتـعـادـةـ صـحـتـهـمـ عـنـدـمـاـ يـخـرـجـوـنـ مـنـ وـحـلـ الشـائـعـ وـالـمـبـذـلـ .ـ غـيرـ اـنـهـ لـاـمـ لـهـ الـ تـسـكـعـ عـنـدـ مـكـبـوتـاتـ الـ مـاضـيـ ،ـ وـلـاحـيـةـ لـهـ لـلـخـرـوـجـ مـاـ هـمـ فـيـهـ اـلـاـ يـجـعـلـهـمـ التـحلـيلـ يـعـرـفـوـنـ شـيـئـاـ مـخـلـفاـ ،ـ شـيـئـاـ اـحـسـنـ .ـ اـنـهـ لـهـ اـنـ يـخـرـجـوـاـ وـقـدـ خـنـقـهـمـ الـ نـظـرـيـةـ فـيـ قـبـضـتـهـاـ وـلـمـ تـوـقـرـ لـهـ اـكـثـرـ مـنـ وـصـيـةـ عـقـلـانـيـةـ اوـ مـعـقـولةـ ؛ـ تـخـضـمـهـ

اـلـىـ اـبـعـدـ حـدـ ،ـ بـيـنـاـ كـانـ المـشـهـدـ عـلـىـ الحـدـودـ عـادـيـاـ وـلـاـ يـشـرـ اـهـتـمـاـ بـحـدـ ذـاتـهـ ،ـ وـمـاـ اـسـتـوـقـفـيـ فـيـ شـيـئـ سـوـىـ مـارـبـتـهـ عـلـيـهـ مـنـ اـفـكـارـ .ـ

فـيـ الـ حـقـبـةـ الـ تـلـتـ هـذـهـ الـ أـحـلـامـ ،ـ بـذـلتـ الشـيـئـ الـ كـثـيرـ مـنـ التـفـكـيرـ فـيـ شـخـصـيـةـ الـ فـارـسـ الـ غـامـضـةـ ،ـ فـلـمـ اـسـتـطـعـ اـنـ اـكـوـنـ فـكـرـةـ عـنـ مـعـنـاهـ الاـ بـعـدـ اـنـقـضـاءـ زـمـنـ طـوـبـيلـ مـنـ اـمـعـانـ النـظرـ فـيـ الـ حـلـمـ .ـ حـتـىـ فـيـ الـ حـلـمـ ،ـ كـنـتـ عـالـاـ اـنـ الـ فـارـسـ يـرـجـعـ اـلـىـ الـ قـرـنـ الـ ثـانـيـ عـشـرـ .ـ فـيـ تـلـكـ الـ حـقـبـةـ (ـ ايـ الـ قـرـنـ الـ ثـانـيـ عـشـرـ)ـ كـانـ بـدـاـ اـهـتـمـاـمـ بـالـ سـيـمـيـاءـ وـالـ بـحـثـ عـنـ «ـ الـ كـأسـ الـ مـقـدـسـةـ »ـ Holy Grailـ .ـ كـانـ الـ قـصـصـ الـ تـيـ تـدـورـ حـولـ هـذـهـ الـ كـأسـ تـحـتـلـ مـنـ نـفـسـيـ مـنـزـلـةـ عـظـيـمةـ مـنـذـ اـنـ قـرـأـتـهـ اـوـلـ مـرـةـ وـاـنـاـ فـيـ الـ خـامـسـةـ عـشـرـ .ـ فـقـدـ كـانـ لـدـيـ فـكـرـةـ غـامـضـةـ اـنـ وـرـاءـ هـذـهـ الـ قـصـصـ سـرـاـ عـظـيـماـ ،ـ فـكـانـ مـنـ الـ طـبـيـعـيـ جـداـ اـنـ يـدـوـلـيـ الـ حـلـمـ وـكـانـهـ «ـ يـسـتـحـضـرـ »ـ عـالـمـ فـرـسـانـ «ـ الـ كـأسـ الـ مـقـدـسـةـ »ـ لـاـنـ هـذـاـ عـالـمـ هـوـ بـالـعـنـيـ الـ اـعـقـمــ .ـ عـالـيـ الـ خـاصـ الـ ذـيـ لـمـ تـكـنـ لـهـ عـلـاقـةـ بـعـالـمـ فـرـوـيدـ .ـ لـقـدـ كـانـ وـجـودـيـ كـلـهـ مـنـصـرـفـاـ اـلـىـ الـ بـحـثـ عـنـ شـيـئـ لـمـ يـزـلـ مـجـهـوـلـاـ لـدـيـ لـعـلـهـ اـنـ يـمـنـحـ اـبـتـدـالـ الـ حـيـاةـ مـعـنـىـ .ـ

وـلـعـلـهـاـ اـنـ تـكـوـنـ خـيـةـ كـبـيرـةـ لـيـ الـ تـقـرـنـ بـالـنـجـاحـ هـذـهـ الـ جـهـودـ الـ تـيـ بـذـلـهاـ عـقـليـ الـ مـنـقـبـ سـعـيـاـ وـرـاءـ مـعـرـفـةـ كـلـ شـيـئـ ،ـ وـلـاـ تـصـلـ اـلـىـ شـيـئـ فـيـ اـعـيـاقـ الـ نـفـسـ لـيـسـ اـكـثـرـ مـنـ كـلـ مـاـهـوـ مـسـرـفـ فـيـ اـبـتـدـالـهـ ،ـ وـمـفـرـطـ فـيـ حـدـودـهـ الـ بـشـرـيـةـ .ـ كـانـ نـشـأـتـيـ فـيـ الـ رـيفـ بـيـنـ الـ فـلـاحـيـنـ ،ـ وـمـاـلـمـ اـسـتـطـعـ

تعاون معه ، ولم يبق امامي من خيار سوى الانسحاب .

عندما كنت اشتغل بكتابي في « الليبيدو » وأدنو قرابةً من نهاية فصل « القربان » كنت أعرف سلفاً ان نشره سوف يكلعني صداقتني لفرويد . لأنني قررت ان ابين فيه مفهومي الخاص عن الزنا ( بالقربة القرية ) ، والتحول الحاسم في مفهوم « الليبيدو » وأفكاراً أخرى اختلف فيها مع فرويد . كان الزنا ( بالقربة القرية ) ، في نظري ، لاينطوي على مضاعفات شخصية الا في اندر الحالات ، وكان فيه عادة جنب ديني على درجة عالية . وهذا السبب ، لعب هذا النوع من الزنا دوراً حاسماً في جميع « الكونيات » Gosmogonies في كثير من الاساطير . لكن فرويد تمسك بتفسيره الحرفي ولم يستطع ان يدرك ما فيه من معنى روحي بما هورمز . و كنت اعلم انه ما كان ليقبل بأفكارى المتعلقة بهذا الموضوع .

تحدثت مع زوجتي بهذا الأمر ، وأعلمتها بمخاوفي . حاولت طمأنئي ، لأنها كانت تظن انه لن يبدي اعتراضاً لشهادة فيه ، ولو انه ربما لا يقبل بوجهة نظري . اما انا فكنت مقتنعاً انه لن يستطيع ان يفعل ذلك ابداً . انقضى شهراً وانا لا استطيع ان المس الريشة ؟ كان صراعاً مرهقاً : هل احتفظ بأفكارى لنفسى ، أم أخاطر بفقد صداقته بهذه الاهمية ؟ اخيراً ، قررت ان امضي في الكتابة قدمأ . وقد كلفتني صداقه فرويد فعلاً .

بعد القطيعة مع فرويد انقضَّ عني كل

على الاقلاع عن هذه الطفولية ؟ ان هذا مالاقدرنا لهم عليه . وأنّي لهم ان يقدروا وهم لا يجدون شيئاً يقفون عليه ؟ يتذرع علينا ان نهجو شكلاً من الحياة بدون ان نستبدل به شكلاً آخر . اما ان نتخدّم من الحياة موقفاً عقلانياً حسراً ، فهذا مستحبيل - كما ثبت ذلك الخبرة - خصوصاً على شخص غير عقلي بطبيعة بمقدار ما يكون المعصوب غير عقلي .

الآن ادرك لماذا أوليت سيكولوجية فرويد الشخصية هذا القدر من الاهتمام . كانت بيّن لففة لأن اعرف « حلّ العقول » و كنت مستعداً لأن اضحي بالشيء الكثير في سبيل الحصول على جواب . الآن اشعر ان وضعت يدي على موطن العلة : فرويد نفسه كان معصوباً ، وكان عصابه - لاشك - قابلاً للتشخيص ، وكان من النوع الذي تظهر عليه اعراض مزعجة جداً ، كما اتضح لي ذلك في اثناء سفرنا الى اميركا . وكان علمي - طبعاً - ان كل انسان معصوب الى درجة ما ؛ ولذلك ينبغي علينا ان تكون متسمعين . لكنني ماكنت لأقف عند هذا الحد ، بل اردت ان اعرف كيف السبيل الى تفادي الواقع في العصاب . على مابدا لي ، لم يكن باستطاعة فرويد ولا تلاميذه ان يعرفوا ما الفائدة التي يجنيها التحليل النفسي من النظرية والتطبيق اذا كان المعلم نفسه غير قادر على معالجة عصابه هو . وعندما اعلن فرويد عن عزمه على توحيد النظرية والتطبيق وجعلهما في نوع من الدغماء طبقاً ، لم يعد بوسعي ان

ضمنت كتابي في «سيكولوجية التحويل»<sup>(١)</sup>، «الزواج السري»،<sup>(٢)</sup> أفكارى عن هذا الموضوع . ان للجنس أهمية عظيمة بما هو تعبير عن «الروح السفلي» chthonic Spirit «الوجه الآخر من الله» ، الجانب المظلم من صورة الله . وقد استثرت هذه المسألة باهتمامي منذ ان بدأت اخوض في عالم السيمياط . وكان ما يقتضي في هذا الاهتمام في الاساس محادثتي الأولى مع فرويد عندما لمست مبلغ ماتشيره فيه ظاهرة الجنس من حساسة .

ولعل اعظم مانجزه فرويد اخذته المعصوبين من المرضى مأخذ الجد ، ودخوله في سيكولوجيتهم الفردية الخاصة . لقد كانت لديه الشجاعة ان يترك «المريض» يتحدث عن نفسه فاستطاع بذلك ان ينفذ الى سيكولوجية مرضاه الحقيقة . لقد رأى بعين المريض ، ان صع التعبير ، فتوصل بهذه الوسيلة الى فهم للمرض العقلي اعمق مما كان يمكن حتى يومئذ ، وكان ، من هذه الناحية ، بعيداً عن الغرض نزهاً ، وشجاعاً ناجحاً في التغلب على جملة من سوابق الحكم . وكتبي من انباء «العهد القديم» اخذ على عاتقه ان ينزل الآلهة المزيفة عن عروشها ، ويهتك الحجب عن جملة من الأضاليل والمناقفات ، ويعرى - بلا رحمة - مانطوت عليه النفس المعاصرة من نتن وغفونه ؛ لم يتدد امام ما قد يجره عليه مشروعه من صيت شائن .

اصحابي ومعارفي . شهروا بكتابي وأعلنوه من سقط المتع ، ورموني بالمستطيقا ( التصوف ) ؛ وبذلك سوت المسألة في نظرهم ؛ ولم يقف الى جانبى سوى ركلن Riklin ومادر Maeder . لكنني كنت توقعت العزلة سلفاً وما كان لي خامرني شك فيما سوف تكون عليه رجوعات اصدقائي المزعومين ، وكنت اعرف ان كل شيء كان معرضاً للخطر ، وأنه كان على ان اتخذ موقعاً ادافع فيه عن اعتقاداتي . وقد تحقق لدى ان فصل «القربان» كان معناه تقديم نفسى قرباناً . بعد ان وصلت الى هذه الرؤية ، صار بمقدوري مواصلة الكتابة ، حتى حين كنت اعرف ان افكاري لن تكون مفهومة . عوداً الى الوراء ، استطيع القول انى انا وحدي الذى جرى منطقياً وراء المشكltين اللتين استثرتا باهتمام فرويد اكثر من كل شيء آخر : الآثار القديمة Spirit Chthonic والجنس . من شائع الخطأ خطأ يصورني وكأنني لا اعترف بما للجنس من قيمة . على العكس ، الجنس يلعب في سيكولوجيتى دوراً كبيراً بما هو تعبير اساسي عن كلية النفس ، وإن لم يكن الدور الوحيد - لكن اهتمامي كان ينصب في الاساس على بحث الجنس في جانبه الروحي ومعناه القدسي قبل معناه الشخصي ووظيفته البيولوجية ؛ وبذلك استطعت ان ابين ما كان فرويد مفتوناً به من غير ان يدرك له كنهما . وقد

ولعلنا نستطيع القول ان الواقعية الثقافية المعاصرة لما تستوعب بعد في فلسفتها العامة فكرة الخافية ومتأنطوي عليه من معانٍ ، بالرغم من ان هذه الفكرة واجهت الانسان الحديث منذ أكثر من نصف قرن . ويبقى تمثل النظرة الأساسية القائمة على ان للحياة النفسية قطبين امراً متراكماً للمستقبل .

اعطى حضارتنا دفعاً ينبع من شقه الطريق الذي يؤدي الى الخافية . اعاد للبشرية اداة كانت تبدو وكأنها ضاعت الى الأبد ولم يعد استردادها امراً ممكناً ، حين كشف عن قيمة الأحلام بما هي اعظم الخافية ، وكانت حتى يومئذ غير موجودة الا في مسلمات الفلسفه وافتراضاتهم ، ولاسيما فلسفة ك . غ . كاروس ، وادوارد فون هارتن .

---

\* نقلنا هذا الفصل عن الكتاب الذي اشتمل على سيرة يونغ الذاتية مشوراً بالإنكليزية تحت عنوان :  
Memories, Dreams, Reflections

من سلسلة Vintage رقم ٢٦٨ طبعة عام ١٩٦٣ - نيويورك  
وهذا الكتاب مذكرات أملاماً يونغ على معاونته آنيلا جافه Aniela Jaffe وترجمه عن الألمانية : ريتشارد ، و ، كلارا ونسنون .

- المترجم -